

وَأَخِيرًا أَحْبَابًا

لِلأَسْنَادِ مُحَمَّدٍ الْحَنِيفِ

وأسلحت حوبتها وأثبتتها على رأسها ثم
وضعت فوقها جرتها وانتظرت ريثما جاءت
سلفتها بجرتها وخرجتا تقصدان ترعة قريبة
وراحت مأمونة تبدى عجبها لسلفتها
كيف ظلت نائمة بعد أن استيقظ كل من
في الدار، وكيف لم تصح حين صحا زوجها،
ومهر من جوارها وكيف لم يوقظها،
وأخذت تصف لها كيف ظلت مؤرقة حتى
ظهرت نجمة الفجر. ولكن حاتمها أن تقبل
منها عذرا ومتى سمعت منها إلى معذرة قبل؟
وكانت سكونية على الرغم من طيبة قلبها
لا تخاف من خبث، فنظرت إلى مأمونة وهي
تضحك ضحكة ذات معنى، وأدركت
مأمونة ما تريد فشت حمرة خفيفة في وجهها
الأبلج الجميل واختلجت عيناها التالفتان
ورفت أهدابها الطويلة وهي تمدح سكونية
حجج اللامعة

وقالت سكونية ضاحكة « إنك حريصة
على رؤيته وما يهيك غضب حمانك. وإنك
لتحامين به حتى تبدو نجمة الفجر. اطمأني
فستدركينه فإنه لن يعود من مشيته والله
حتى يراك؟ وستجدينه عند التربة. وها هي
ذی طراوة الصبح تسرى في الحقول على

أشرقت الشمس ورأت مأمونة وهي
لا تزال راقدة فوق سطح الدار أشعتها الحمراء
في سمف النخلات القريبات وفي قبة المأذنة
البعيدة، فاستوت جالسة على حصيرتها،
ودلكت بأناملها الدقيقة السمراء عينيها
الدعجاوين الجميلتين، ثم ما لبثت أن نهضت
فطوت فراشها وزلت بسرعة إلى فناء الدار،
ونظرت فلم يجد إلا البقرة والجاموسة،
فأدركت أن زوجها قد خرج بجمله إلى الحقل
البعيد. وسمعت سلفتها سكونية تحدث بعلمها
في إحدى القاعات وقد تهيا لبسحب الدابتين
إلى حقل قريب وتهيا هي لتحمل جرتها،
ورأت حاتمها المعجوز نشطة في بعض أعمال
الدار فبدأ على وجهها كثير من الخجل
والهم، ثم أصبحت رب الدار على مصطبة
لدى الباب يقبل بعض الخيال فحيتة في استحياء
وعصفت بسرعة إلى إبريق فمسلت
وجهها بقليل من الماء، ثم مسحته بإديل
جلابها الأبيض وسوت شعرها بكفها
معجلة وشدت عليه غنديل أخضر جديد،
وارتدت جلابها الأسود، ووضعت على
نحرها عقدها الكهرماني الكبير الحبات،
وتطرحت بطرحتها الطويلة السوداء،

تكلفت الغضب وصاحت بسلفتها ثانية بين
العبوس والضحك قائلة « سكينه ! ماذا
دهى عتاك هذا الصباح ؟ »

رأى أول مارآها فجأة، وكان خارجاً من
داره في طرف القرية ذات صباح من أصباح
بشنس ، ولم يمض إلا أيام قلائل من إجازته
الصيفية التي يقضيها كل عام في القرية لا يكاد
يرحها حتى تبدأ الدراسة . ونظر فإذا هو
حيال قرية شاة يأخذ العين جمالها الرائع ،
فوجهها المتورد في سحرة ، وعيناها الواسعتان
السوداوان ، وأنفها المستوي الدقيق ، وشباب
الذي لا يزيد عن استدارة الخاتم ، وخذها
الأبلج الأسيل ، ومفرق شعرها الفاحم تحت
منديلها الأخضر ، وعندها الكبير ماني
الذي يدور بنجرها المصقول ، وقوامها الأهيف
الطويل في غير إفراط ، وصدرها الناعم ، كل
أولئك قد انطبقت في صورة من الحسن عجيبة .
وأثبت في وجهها عينيه وفي نظراته الإعجاب
والعجب ، ونظرت هي كذلك إليه نظرة
جريئة لم تستردها إلا بعد لحظة . وأدرك
أنها تفتنت إلى إعجابه بها فامتلاً بهجة .
وأحسن أنه قرأ في وجهها ارتياحاً عظيماً لما
تفتنت إليه ، فلقد كانت تنظر إليه وكأنما
تشمّر أنها اهتدت إلى من يدرك جمالها
ويقدره قدره ...

وانقضى اليوم كله ، ولم تزل صورة

الرغم من شمس نؤونة وما يمشي سيدي والله
كل صباح في إجازته هذه إلا ليراك »

وحبست مأمونة في جهد ابتسامه حلوة
في ثمرها الدقيق الذي يبدو كأنه ثمر طفلة
وصاحت بسلفتها قائلة « سكينه ... ماذا
حدث بعقلك ؟ » ثم تظاهرت بالغضب على
الرغم مما بدا من أمارات الرضا في محياها
الأسمر المتورد التقسيم وعادت تقول « ماني
ولسيدك هذا ؟ وهل يفكر في أمثالنا ؟ وأين
نحن منه ؟ »

واقتربتا من الترعفة فأبصرتهما مقبلا ،
وجملت مأمونة من طرحها نقاباً لوجهها
تخفيه عن سكينه ، وغطت صدرها بذيل
الطرحة وإن الاضطراب ليملاً جسمها كله
وإن سكينه لتسمع دقات قلبها . وسر بهما
فأثبت نظرة في وجه مأمونة وفي قوامها
المرهف وصدرها الناهد ولكنها لم ترفع
إليه عينها . وحيث سكينه كما يفعل كما رأها
قائلاً « صباح الخير يا سكينه » وردت عليه
في اهتمام شديد بقولها « صباحك الله بالخير
يا سيدي ... الطريق كله منور »

وقالت سكينه لسلفتها وهي تلمح في
وجهها : فرحة وفي عينها زهوا وفي مشيتها
تخلعاً « إنه يحبيك أنت يا مأمونة ... والله إنه
يحبك ... وهل يخفى الحب ؟ لقد كان ينظر
إليك نظرة لو رأيتها ... »

وضحكت مأمونة ولكنها ما لبثت أن

مثل ذلك في وجهه . ولم يلبث أن أحس
الفتى بعد أيام إحساسا عجيبا فإنه ليمتلي
ضيقا ونكدًا إذا مر يوم فلم يرها فيه ، وإنه
لا يزال في ضيقه حتى يراها ، ويرى من
بعد ابتسامتها التي تضيء وجهها حين تقع
عينها عليه والتي تحبسها إذا اقتربت منه ،
فإذا الدنيا كلها باسمه حوله . ثم إنه بات
يعجبه منها شيء آخر يضاف إلى جمالها ،
ذلك هو ما يحسه من رزائها واحتشامها ،
وحسن أدبها إذ تحي صاحباتها أو
تتحدث إلى النسوة . وحسن ذوقها في اختيار
زينةا حتى لتبدو وهي القروية الساذجة
وكأنها ذات ثقافة

وسرعان ما عرف اسمها واسم زوجها
وأسرته ، ولشد ما آله وكدره أن ترف
مثلها إلى عطية ذلك القصير الأعشى الذي
لا يعجب في هيئة ولا في هندام وإن
كان أبوه ميسورا بعض اليسر ، والذي
لا يعرف إلا حقله وداره فيخرج أكثر
الأيام قبل شروق الشمس فلا يعود إلى
داره إلا بعد غروبها مكدودا مضقارا يكاد
يسقط من الإعياء

ملأت مأمونة وسكينة جرتيها وجلستا
على حافة التربة تنتظران من يعينهما على
حملهما . وقالت سكينة « اسمي يا مأمونة !
إن سيدي حسين يريد أن يتحدثك ... وأنا

تلك القروية مل خاطره ، وإنه لمرح طيلة
سهاره يرى البهجة في كل شيء ويحس التعة
في كل حديث ، وإنه ليرد ذلك فيما يحس إلى
ذلك الجمال الذي طالعه به الصباح
وكان خارجا من امتحانه مكدودا ، لم
سقى له إلا سنة واحدة في كليته ، وكان
يحدث نفسه أن يستمتع بإجازته هذه
ما وسعه الاستمتاع ، فلن تكون له بعد
مخرجه إجازة طويلة ، وها هو ذا يفتح
إجازته بما يلقي السحر في خاطره ويشيع
البهجة في نفسه ...

وكان يثلج فؤاده حديث نفسه إليه أنه
سوف يعرف عما قريب من هي ، وإن كان
لن يعجب كيف لم يرها قبل ذلك . على أنه
يدرك من عقدها الكهرمان ، وثوبها الأسود
الشبيه بالحرير ، وخلقها اللامع ، وحنانها
الجديد ، أنها عروس فتاك في القرية أمارات
لا تخفى ، وأكبر الظن أنها تزوجت شابا
في الحارة التي تقع غير بعيد من بيت عمه
العمدة وبيوت أسرته

ورآها في صباح اليوم التالي تحمل
جرتها إلى التربة في سرب من الصبايا ،
وكان جالسا أمام داره يتربص في قلق
وشوق ، ونظرت إليه واختلجت شفتاها
بابتسامة خفيفة ، ولكنها استردت نظرتها
في سرعة مخافة من حولها ، وقرأ في وجهها
أنها تمحصر على أن تراه وأن يراها ، وقرأت

موضع شرك و ... » والتفتت إليها مأمونة
التفاتة سريعة وقالت وفي وجهها صفرة وفي
سوتها تهديج وقد دقت صدرها بكفها :
« سكينه ... أنت سلفتى وما أسأت إليك
قط وإني أحبك وأحب أولادك ، فلم
تسيئين إلى ؟ ماذا تمنين بهذا ؟ أنا أحب
زوجى ... هذا ما قسم الله لى ، وليس بمرز
على الله أن أصبح أما كما أنت أم ، ورجائى فى
الله كبير ... لم تطيعين حماك فتتجسسى
على ؟ أنا أعرف أنها هى التى دفعتك ، أما
زوجى فهو مسكين لا يعرف إلا لقمته
وقاسه .. حرام عليك يا سكينه .. » وتندت
عينا مأمونة ومسحت دموعها بذيل طرحتها
فقال سكينه مضطربة « أنا يا مأمونة
أتحسس عليك ؟ والله ما كلمتني حماك فى
شئ ولا تدرى شيئا ... والله إن سيدى حسين
رجل طيب جدا ، سيرته مثل المسك بخلاف
أبناء أعمامه جميعا . وما أردت إلا أن حديثه
معك لن يضرك شيئا »

وجاءت امرأتان فأعانتهما على حمل
حرنبيهما ، فسارتا صوب القرية صامتتين .
ولما مرتا ببيت العمدة ، وبيوت أسرته ،
أسرعت مأمونة مشيخة بوجهها عن تلك
الدور لترى سلفتها أنها لا تحب أن ترى أحدا

أهو الحب عاد يخفق به قلبه ولم يشف
من جراحات له بعد ؟ أهو اهتزاز نفسه

للجمال فحسب كما تهتز لمطلع الشمس وغروبها
وإشراقة الفجر وطلعة القمر ؟ ذلك ما كان
يهجس فى خاطر حسين ذات صباح وهو على
كرسيه أمام بيته منكدر النفس فقدمرت به
مأمونة فى سرب من صويحباتها ولم تنظر
إليه وكان فى وجهها عبوس أقرب إلى أن
يكون حزنا . وإنه ليسخّر من نفسه أحيانا
إذا خلا إليها ، فإذا كان ما يحسه فى أعماق
نفسه هو الحب ، فما غايته من حب فتاة قروية
هى قبل كل شئ زوجة ؟ كلا ... ليس ما يحسبه
إلا الإعجاب بالجمال ملك عليه نفسه وحرك
قلبه الشاعر . ولكن ما باله تنكدر نفسه
ويظلم نهاره إذا غابت عنه يوما أو يومين ؟
وما بال قلبه يهفو إلى نظرة من نظراتها ؟
يل ما باله اليوم ضائقا بنفسه لأنها مرت به ولم
تنظر إليه ؟

وقطعت عليه حواطره سكينه حين رفع
رأسه فآها أمامه . لقد جاءت تبيعه بعض
أزواج من الأراب والحمام ، وكان اليوم يوم
سوق القرية ، وإن وجهها ليدى ما تحفيه فى
نفسها ، فسألها باسمها « أهذه أرائيك أنت
وحماماتك ؟ » فأجابت من فورها بل أراب
مأمونة وحماماتها ولى بعضها ؛ تبيعها لخلاف
بينها وبين حماها على إطعامها ، وهى تريد
منها لزور السيد البدوى وتضع شيئا من
المال فى صندوقه ... ثم إن زوجها يطلب
منها المال ليشتري الشاى والمسل فليس

خدمهم، فقال لها «أعجب أنك لا تتقاربن منها
ياسكينة !» وكأنا أريد بذلك أن يستردها
من أبناء سلفتها، فقالت سكينة «وهبني
الله البنين ووهبها الجمال؛ ولكم تنمي
المسكينة الولد ياسيدي ولستم تبكي
حظها، وأنا أحبها والله لأنها طيبة هادئة
لا يكاد يسمع لها في الدار صوت، ولأنها تحب
أولادي ولا تبخل عليهم بشيء وستور
السيد البدوي وسيدي عبد العال وإن شاء
الله يجود عليها ربنا بالولد»

وقال حسين ضاحكا: «على كل حال ما كانت
مثل هذه لذلك القصير الأحمق الذي يستوى
عنده الذلالة والقرودة»

وصحكت سكينة قائلة «والله ياسيدي
كلاهما حق، ولكم يغيطها منه أنه لا يظن
منها إلى أي معنى مما يظن إليه الرجال، مع
أنها إذا زلت السوق لا يبقى شاب أو رجل
من بلدنا أو من البلاد الأخرى إلا ويسكاد
بأكلها بعينيه ... إنها وسط مئات النساء
والسبايا في زحمة السوق تجذب الأنظار فلا
تقع إلا عليها»

ودخلت سكينة بيته بما تحمل من أراب
وحاتم، وخرجت بعد حين فسألت في جراءة:
«ألا تمشي الليلة بعد المغرب؟ سرانا
عائدين فسنملا جرتينا هذا المساء من الفرقة
تحت شجرة الصفصاف عند رأس غيطنا
القريب»

يمطيه أبوه شيئا على كثرة ماله ولا يعطى
زوجي حسنا ولكن زوجي لا يرهقني
فقال باسما: أتعلم أنك تبيعينيها لي؟
فأجبت في جد: لا والله ياسيدي.
وأنا لأستطيع أن أفترى الكذب عليك
فسألها ولم لم تذهب بها إلى السوق؟
قالت: طلبت إلى أن أفعل ذلك ...
فإنها ... إنها مهمومة تبكي ... لقد شتمها
زوجها وشتمها حاتمها، وما خرجت لئلا
جرتها هذا الصباح إلا مكرهة

وبدا على وجهه الألم الشديد والرثاء
والحنق على حاتمها وزوجها، وأغرى ذلك
سكينة بأن تترثر لتستزيد عطفه، فراحت
تصف له كيف شكرها حاتمها لأنها لم تحمل،
وكيف تهتمها دائما أن لا هم لها إلا أن تزين
لتمجيب الرجال، وأن ذلك يشغلها عن أعمال
الدار. وكيف انتهرها زوجها بالأمس وهم
بضرها حين قالت له إنها لا تسكاد تراه في
النهار، وما أسرع ما يلفه النوم في الليل، وأنه
يرهقها بطلب المال وهي لا تملك سوى ما تربي
من طيور قليلة وأراب يموت أكثرها
أحيانا ...

وقاطعها حسين قائلا في كثير من الغيظ
«أيسكون مثل ذلك القصير الأعشى زوجا
لأجل فتاة في القرية؟» وأحب أن يداعب
سكينة فليس بينه وبينها كلفة فقد كانت
خادمة في بيته ولا يزال أبوها وأمها من

أشجار الصفصاف والتوت والسنط والجير
على جوانب الترع والغدران ، والطرق تكاد
تكون خالية إلا من بعض الصبايا عائدات
بجرارهن من التربة البعيدة

وتجاور في مسيره شجرة الصفصاف
المقصودة وعيناه على الأفق الشرق مستغرقتان
في حضرة الشجر وحرارة الشفق ، ثم استدار
نحو مغرب الشمس ، فأبصر على بعد فتانين
تحملان جريتهما ، وسرعان ما عرف مأموته
من منيتهما ثم عرف سكينته ...

وتوازي غير بعيد خلف شجرة ، حتى
ملأتا جريتهما تحت الصفصافة ، ثم أقبل
كأنه عائد من سير طويل وأبصر مأموته
وكادت لا زال على حجر في الماء تكشف عن
ساقيهما ، وظهرها إلى الطريق ، ورأته سكينته
فصاحت ، فقال « مساء الخير يا سكينته » وقبل
أن تجيب التفت إلى مأموته فرأى دهشة المفاجأة
في وجهها واضطراب في جسمها ، ولكنه
تميز في ذلك الوجه المصفر مع ذلك فرحة ،
ورأى في عينها رضا وسكنا ، وأحس في نظرتها
شيئا من الحجل والشكر فتذكر ما باعتته بإزاء
سكينته ، ثم ما لبثت أن عادت لوجهها حمرة
فكان وزرقة الماء من تحته كقطعة على
الأفق من حمرة الشفق

وقال حسين : وهو يحكي اضطرابه :
« من معك يا سكينته ؟ » وأبتسمت مأموته
فإنه يراها ، فقالت سكينته « هذه خادمتك

ومشت وهي تمسك النقود في يدها ،
ورأى وهي منه على خطوات الدهشة في
وجهها من سخائه والفرحة بنصيبها من الثمن
وطابت نفسه بأن يعين مأموته على زيارة السيد
البدوي ، وأن يذهب عنها بعض الهم

قضى نهاره بعد الساعات ، وإنه ليسأل
نفسه أتعلم مأموته بهذا الموعد أم أنه تدير
سكينته وحدها ؟ وإنه ليسأل نفسه كذلك
كما سألهما ما هذا الذي يحسه نحو تلك القروية
الساذجة ؟ وإن لم يكن هذا هو الحب فإذا
يكون الحب إذن ؟ ويعود فيقول لنفسه
وما غايته من هذا الحب ؟ أذلك الذي يحسه
هو سحر الجمال ليس غير ؟ ولكن أيستطيع
أن ينصرف عن هذه القروية فلا يفكر فيها ؟
إن هذا السؤال وحده يكدر خاطره وسرعان
ما تتمثل له عيناها الدخاوان ولون وجهها الذي
مارأى قط مثل حمرة وسمرة ، ونظرتها التي
كان يؤمن أنها لو تمسكت من صخر لا اهتز
الصخر ... سرعان ما تتمثل له ذلك فيقفو إليها
قلبه وغلا نفسه السحر

وتسلل وحده إلى الحقول ولم يبق من
الشمس إلا حمرة في أطراف السعف . ومشى
يحيط به القضا الذي تحبه في الرب نفسه
الشاعرة ، فلأرض خالية على مد البصر إلا
من بعض حقول القطن ههنا وهناك ؛
وأنفاس المساء تسرى رجة من بين

حمل جرتك ؟ لم لم تصبرى حتى يأتى من
يعيننا معا ؟ » وما كان أشد دهشتها حين
تقدم حسين فقال لمأمونة « لقد صببت الماء
على يدي وسأعينك بنفسى على حمل جرتك »
وتراجعت مأمونة مأخوذة وفي عيناها العجب
والرضا قائلة « لا .. لا .. ياسيدى وأنا
قدر المقام ؟ أنا خادمتك ياسيدى » ولكنه
أصر فأطاعت ، فتناول الجرة بيديه وطأطأت
رأسها قليلا ومدت يديها المرتعشتين فأعانها
على حملها وهو يحس أنفاسها على صفحة
وجهه وسارت وسلفتها ومـل نفسها
الزهو والرضا

رآها في الصباح فابتسمت له شاكرة ،
ورأى في وجهها وعينها شيئا آخر غير
الشكر ، شيئا يحسه ولا يدريه ، شيئا
لا يكون إلا بين قلبين

واردادت بينه وبينها الألفة ، فإذا
كانت وحدها حياها وحيتها ، وإذا كانت
مع سكينه حياها معا ؛ ولكنه لا يرى عقده
في جيدها أبدا

وعلم من سكينه أنها تخاف أن تلبسه ،
فسلسلته ومشبكه من الذهب وحياته مما ليس
للقرى به عهد ، وكان قد أعد هدية لقرية
له. ومادا عسى أن تقول لزوجها وحماها إن
سألاها عنه ؟

ورأت عقدها معطلا لا يعجب به أحد ،

مأمونة « فقال في هدوء « لا تقولى خادمتك
من مثلها في القرية جمالا وذوقا ؟ »

واشتدت الحمرة في وجه مأمونة وهي
على الحجير في الماء ، واتممت عيناها في
شوة وزهو ، ثم أشاحت بوجهها نحو الماء
في حفر فقال « مساء الخير يا مأمونة » فردت
في صوت خافت ونفسها يتقطع « مساء
الخير والسعادة ياسيدى حسين »

ووقف لحظة ومل نفسه بالبهجة لا يدري
مادا يقول ، ثم تظاهر أن في كفيه بعض
الغبار وأنه يريد أن يفسلها ، وقالت سكينه
« هاى بعض الماء بكفيك يا مأمونة »
واقترب من الماء وأخذت مأمونة تغترف
منه بكفيها وتصب على يديه (مرتعة الأامل)
وهو يتأمل في جبينها الصقيل وعينها
النجلاوين ويرى من قرب أنفها السوى
وفمها الرفيق ، وهي متجهة بصرها إلى الماء
لا تكاد تنظر حتى إلى يديه

وابتعدت سكينه متظاهرة أنها تجمع
بعض أغصان السقفاص تريد بها حوتها ،
فأخرج من جيبه عقدا ودسه في جيب مأمونة
في مثل لمحة الطرف ، وما كادت تلتفت حتى
رآته في وسط الطريق ...

وخرجت من الماء مرتبكة الفاصل
مرتمة الأطراف ، ولكن في أسارىها
مرحة ، وأعان سلفتها على حمل جرتها ،
وضحكت سكينه قائلة « ومن يعينك على

كما كان جالها معطلا قبل أن يعجب به حسين؛
ولكنها حريصة عليه ، تضعه حول جيدها
لحظات إذا خلت إلى نفسها وتنظر إليه مليا
في المرأة ثم تعود فتخفيه

وعادت من زيارة السيد البدوي فقد ذهبت
مع زوجها وحمايتها ذات يوم فقضوا سحابة
النهار . وأنبأته سكينه أنها ألفت أكثر
قودها في الصندوق وأنها تصدقت ببعضها
وأنها مطمئنة إلى أن الله سوف يهب لها غلاما
وأصبحت تحرص مأمونة على أن ترى
ساحبها ، فهي تترى بيته مرات في عمل وفي
غير عمل . وسارت تخرج كل صباح بجربتها
وحدها أو مع سكينه لتلقاه فتبذوه بتحياتها
وسمعه وقلبها يحرق بحبها بأحسن منها

وصار إذا غاب عنها يوما أو يومين يرى
عند التقائهما لهفة في وجهها وشوقا في تحيتها .
ورآها كلما مرت به في سرب من سواحبها
رفع صوتها لتسمعه ، وتضحك مزهوة
وتمايل تحت جربتها الثقيلة كأنها تراقص ،
وعلى حفيضة مريحة لأنها تعجبه ولأنه
يقطن إلى ما تفعل ويعجب به

وجدت آخر الأمر من يعجب إعجابا
سادقا يهز نفسها من أعماقها بجالها الذي
طالما تحسرت من قبل أن لم تكن تجد من
يعرفه ويقدره . وأحست أنها اليوم تعيش
عشا ساعرفته من قبل إلا في الحلم ...
وأحست صاحباتها أنها اليوم مزهوة

دائما مريحة أبدا ، ثم مالبت عيوسهن الماكرة
أن تبين أن ما بينها وبين حسين هو ما يكون
بين حبيبين فإنه لا ينظر فيهن إلا إليها .
وإنهن ليرين في وجهه الاهتمام والاهفة .
ويرين في وجهها مزيجا عجيبا من القبح
والاضطراب تحاول أن تخفيهما في جهده .
وقالت إحداهن وتدعى حميدة ذات مرة في
همس وخوف وحقد تعرض بها وتشير إلى
أسرته : إنهم يحسنون الاصطياد ثم يركون
فرائسهم بعد ذلك بها للعار والجوع .
ونظرت إليها مأمونة متكرهة غاضبة يكاد
يطفر الدمع من عينيها وكادت تصرخ فيها قائلة
« إلا حسين » ؛ ولكنها كظمت غيظها
وإن أحست إحساسا مبهما بندير لها في هذه
الكلمات على أن النذر كلها لا تلبث اليوم
أن تبثد في مباحج ذلك الحلم الذي يملأ حياتها
وعدت لائما بشئ مما يتهاوس به
النسوة والصبايا ، وأصبح يحبها حسين وهي
بعضهن ، وكثيرا ما يحملنها في مقدسهن طوتا
أو كرها ، وهي ترى عليهن عما ترين
من دلائل حبه وإعجابه وتدل إدلالا ربهها
سحرا وفتنة

بات يحصى ما تصرف من أيام إجازته ،
وكان يرعجه انقضاء الأيام في سرعة ما عرفت
مثلها من قبل . وسيفادر قريبته متى انقضت
إجازته مامن ذلك نده ومع أنه لا زال له و

القرية أيام طويلة ، فهو لا يطيق أن يتصور يوم أن يرحل وكأنه وهو الشاعر الذي تفتح للجمال نفسه ، يرى اليوم من جمال قريته ما لم ير من قبل ، فأسحارها وأمالها ومجالها وحقوقها وبيادرها وكل شيء فيها قد شاع فيه السحر ، وكأن كل فتاة في قريته حبيبة إلى نفسه منذ عرف مأمونة .

وبما كان على كرسيه ذات مساء أمام دلو ، عند عرج القرية إلى الحقول وقد أخذت أشعة القمر تلألأ رؤوس الشجر والنخل ، وسدو بيضاء على الجدر الطينية التي تراءى له على بعد منه ، إذ عاود خاطره ذلك السؤال الذي ظلما هجس في نفسه : ماذا ينتهي عن مأمونة ولا يعدو ما بينهما أن تراه ويراها ؟ وكيف يصدق نفسه أن ما يظنه حبا إنما هو خيال شاعر . وأخذ يتسمر ساعدا من نفسه تارة كما يفعل كل مرة ، ويصفى صيفا شديد هذا الصراخ تارة أخرى ، بل إنه ليكاد يعتقد أن ما كان يتلأ نفسه من تشويق إليها قد أخذ يتردد أن أفتته وألقها ، وراح يتفكر في هذه الحالة العجيبة من حالات نفسه ، وشعر بشيء من الارتياح لهذا الخاطر فلا ضير أن يتهمى ما بينه وبينها حتى أية صورة .

ويتمثل له قوامها الرشيق ووجهها الجميل وعيناها اللتان تراهي مثلها قط . ويتخيلها غامضة مائة في سميت كل ما عرفت ما بداخل

نفسه من تغير ، فيزعج لهذا الخيال ، ويروح يؤكد لها في خياله أنه لن يتساها مهما بعد عن القرية ، وأنه سيبقى وفيها لها معاش . وحسبه أن يراها في كل إجازة . . . وترتاح لهذا الخيال نفسه ويرايها انقباضا شيئا فشيئا . ثم يرفع رأسه فإذا هو أمام حقيقة لا خيال . فيها هي ذى مأمونة فوق رأسها مقطف تمر به صامتة لا تلفت إليه ! فيتألم ويمجب ، ثم يلتفت يمنة ويسرة فلا يرى غيرها ، فيتبعها مسرعا ويناديهما في صوت خافت ، فتقف تحت نخلة ملتفة إليه ، ويقبل عليها . ويقتن من دهشته ، ويعد إليها يده مساما فتسند مقطفها بيسراها وتبيل على يده تحاول أن تلتصقا ، فيشدعا مسرعا ويقول وفي صوته اضطراب وفي يده كله نشوة

هكذا تمرين بي ولا تتكلمين ؟

تتالت في همس خست أن يكون أحد في مدخل البيت

فسألها : إلى أين تذهبين وحسبك في هذه الساعة ؟

تتالت : إلى حقلي البعيد أجل الطعام إلى زوجي وأخيه وأبيه ، وسكنة قادمة ورائي ، وليس في الحقول ما يخيف والقمر طالع والأرض خالية

فسألها باسمها : هل سبقت منفتك لتكلميني ؟

وضحكت مأمونة ضحكة حاوة وأسندت

مقطفها بأناملها الرقيقة وهي تنثني في عجب ،
وكان نسيم العشاء يبعث بحريد النخلة
فتسرب أشعة القمر من خلاله حيناً فتظهرها
وتخفيها حيناً فتسرها . وسمع قلبها يندق
واشتدت كذلك دقات قلبه ، ورأى شفيتها
تحتلجان ، فدنا منها حتى اختلطت أنفاسهما
ورأى في وجهها استسلاماً ودهشة . وكانت
متجهة صوب القرية فهمست « ها هي ذي
سكينة » فالتفت وقلبه يلعن سلفتها ، ورد
تحياتها في روع ، وحسباً مأمونة وعاد إلى كرسيه
لا يدري أي حزن هو أم في بقطة ، وكانت
لا تزال ملأ بده شوة عجيبة ما أحس مثلها
أبداً . وحوارت نفسه كيف يكون أجمل ما في
الحياة أن تحب الإنسان وأن يكون محبوباً ،
ورأى كيف تتمحى الفوارق جميعاً في الحب
بل كيف تخرج روحان فكانت في بدن ،
وفيت هو أحسن لم يعد يتصور حياته خالية
من مأمونة .

في يوم لم يرها من قبل ، ولهم اشتد ضيقه
وقدومه . ومرة ان وثالت فأظلم كل شيء حوله .
ومر به وخامس فلم يعد يستطيع صبراً ،
ودعت به الظنون كل مذهب . أمهاها
زوجها عن الخروج ، هي غاضبة من زوجها
عنى في دار أمها : « أمريضة هي » وما
مرضاها ؟ وأين سكينة ؟ حتى هي لم يعد يرى
وجهها الأغمر عما يريد مما وافقه وأرضاه . ولم

يجد بدا من أن يرسل عشية اليوم الخامس
من جاءت بسكينة إلى بيته ، فما كاد يراها
حتى اطمأن قلبه فليس في وجهها ما يندر
بخوف وسألها فقالت « إن بركة السيد
البدوي وسيدى عبدالعال قد حلت بها ، في
بطنها ولد إن شاء الله ، وهي راقدة من أيام ،
وما يصايقها الآن إلا القى » وسكنت
سكينة لحظة ثم قالت في شيء من التردد
« وإن النعم ليزيد أوجاعها والغيظ ببعده النوم
عنها وأنا بجانبها دائماً أنهاها عن السكاء فلا
تكد تكف عنه »

فسألها : وفيه هذا النعم وقد حلت بها
بركة السيد ؟

فأجابت من حاتها ومن زوجها : « شأنيها
تتمها بالمرض وزوجها يركبها في قاعة
مظلمة ولا ينظر إليها أن يسأل عن حالها يوماً
فإنه لا يكاد يربط جملة في العشية وقد جاء من
عمله ورائي أمامه الملف ، حتى يصعد إلى
السطح فينام إلى الفجر ثم يخرج إلى الغيط
فقال في غيظ : وماذا يعنيها من هذا القرد ؟
فقالت : لقد كان يكرهها لأنها لم تحمل
وها هو ذا أتولد في بطنها ، وإنه أيجزها أن
تظل معرضاً عنها .

فقال مفكراً : « الغيب . لا شيء »
فقالت : وشوقك إليها يا سيدي
أعرف ذلك وهي والله مشتاقة إليك
كثيراً ما تذكرك

الرجال تحية الإسلام فاعتدلوا واقفين في احترام وردوا تحيته ثلاثهم في اهتمام وجههم لقد كانت مريضة حقا ... ذلك ما يراه في وجهها وبدنها ؛ ثم أخذ وقد زال اضطرابه ينتبه إلى ما دب في نفسه من إحساس بالفرح لرؤيتها بعد هذه الغيبة ومن شعور بالخوف مما تم عنه نظرتها

إن في عينها نذرا له ما في ذلك شك . هذا ما فسر به نظرتها . لقد لح في عينيها الاعتذار والأسف ، ومض الألم والحزن . إذن فلينظر القطيعة وليوطن نفسه على تحملها . وأوسك في ضيقه أن يرحب بهذه القطيعة ففيها سقاؤه من هذه الحيرة الأليمة . وعاد يسأل نفسه في حزم ماذا يريد من مأمونة ؟ إن واجبه ألا يخدع نفسه أكثر مما فعل . ما غايته من حبه هذا ؟ أيستطيع أن يمتحن هذا الجمال ؟ إنه إن قبل أبطل سحره ، وزر كه سلعة رخيصة ، وماذا يبقى من روعة الحلم إذا عد وليس بحلم ؟ قطيعة ؟ كلا . كلا . إنه يفرغ من مجرد اللفظ . إنه واضح . فما رآه في عينيها إنما هو شكاتها من روحها . ومن سقمها .

قالت مأمونة تحدث سلفها تحت الصفصافة وهما يطعمان لقيات من الخمر القديد والمخلل والمش « ما كنت أحب

البقية على صفحة ٧٦

تقال في حجة الأمر : خذى هذا وإياك أن تعلم مأمونة . اشترى لها ما تريد وانتحلي لما معك من مال مصدرا آخر . أفاهمة أنت ؟ فأجابت : حاضر ياسيدي . رناتيك

نسا

كان بعد ذلك بأسبوع على ظهر مهره الأسود في جلده التلي الأبيض الفضفاض تصعد حقا من حقول أسرته البعيدة عسى أن يشي بعض شيء . وكان النهار قد متع واشتد القيظ فزاده ضيقا على ضيقه ... وكان يحس الوحشة في كل شيء ، ويعجب أين ذهب ما كان ، شيع من سحر في كل حي وفي كل جماد ! وكانت توسوس له نفسه بما عسى أن يكون في كلام سكينته من اختلاق حتى يكاد يجرم أنه الحجب مأمونة إنما هو سبب غير المرض ؛ ولئن لم يكن يدرى ما هو ، فهو يوجس منه خيفة ، وراح ينتقل من خاطر إلى خاطر كما ينتقل به مهره من ظل شجرة إلى ظل أخرى ونظر على بعد وقد انعطف به مهره في طريقة فلاحته الصفصافة الحبيبة ، ورأى عندها في الحقل عطية وحسنا وأباها ، تخفق قلبه ، وأنعم النظر فتبين هناك نسوة في ظل الشجرة تحجس بعض الدواب . أترى مأمونة فيهن ؟ واقترب من الشجرة فإذا هي هناك ! وإذا بها تسترد نظرتها إليه في سرعة وتمتحة صوب الترععة . وألقى إلى